خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

٦

كن في الدنيا كأنك غريب

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في صَحيحِ البُخارِيِّ عن ابن عُمَر رضيَ اللهُ عنهُما قالَ:

أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بمِنكَبيَّ ، فقال: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ ، أو عَابرُ سَبيلٍ».

وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ:

إذا أمْسيتَ فلا تنتظِر الصَّباحَ ، وإذَا أصبحتَ فَلا تَنتظِر المَساءَ ، وخُذْ من صِحَّتِكَ لِمرَضِكَ ، ومن حَياتِكَ لِموْتِكَ.

في مساءِ هَذا اليومِ ، انْطلقَ أفرادُ الأُسرةِ إلى بيتِ خَالتِهم الحَاجَّةِ (صفيّة) وذَلكَ بهدفِ زِيارَتِها والاطْمِئنانِ عن أَحوالِها.

ولمَّا دَخَلُوا البيتَ وجدُوهَا قد تمدَّدتْ عَلى فِراشِها ، فَسألُوها عنْ أحْوالِها الصِّحيَّةِ ، ثمَّ جلَسُوا إلى جِوارِهَا..

فراحَتْ تَتْلُو قولَ اللهِ تَعالَى:

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

قالَ (جميل): أحسنتِ يا خَالتِي ، وصدقَ اللهُ العظيمُ ، وصدقَ رسولُهُ الكريمُ القائِلُ:... وقَرأ الحديثَ النَّبوِيَّ الَّذي رَواهُ ابنُ عُمَرَ رضيَ اللهُ عَنهُما..

نحنُ غُرباءُ في هَذهِ الدُّنْيَا!!

وتابعَ جميلٌ:

لِذلكَ أرادَ اللهُ منَ البَشرِ أنْ يَعلمُوا يَقيناً أنَّهم غُرباءُ في هذهِ الدُّنيا، فَهُمْ مَهْما طالَ بَقاؤُهُم رَاحِلونَ، مِصداقُ ذلكَ قولُه تَعالَى:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

لِذلكَ كانَ الرَّسولُ صَلواتُ اللهِ عَليهِ يعملُ دَائِماً عَلى التَّقلِيلِ من الاهتمامِ بالدُّنيا وشَأنِها، وذَلكَ بِهدفِ عدمِ التَّكالُبِ عَليها أو التَّمسُّكِ بِها.

مثالُ ذَلكَ قولُه: «لَو كانَت الدُّنيا تَعدِلُ عندَ اللهِ جَناحَ بعوضةٍ ما سَقى كَافِراً مِنها شَربةَ ماءٍ».

وقولُه عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «يُنادِي مُنادٍ: دَعُوا الدُّنيا لأهْلِها.. دَعُوا الدُّنيا لأهْلِها ، مَن أَخَذَ منَ الدُّنيا أكثَرَ مِمَّا يكْفِيهِ أخذهُ حتْفُهُ وهُو لاَ يَشعرُ».

هلْ يُمكنُ بِناءُ دارٍ على موجِ بحرٍ!؟

وأخرجتْ (روضة) دَفتراً صَغِيراً مِن حَقِيْبَتِها ، ثمَّ قالتْ: في هَذا الدَّفترِ أكتبُ كُلَّ ما أسمعُ ويعجِبُني.. وسَأقرأُ عَليكُم بعضَ مَا يتعلَّقُ بِموضُوعِنا الآنَ:

أوْصى المَسيحُ عليهِ السَّلامُ أصحابَهُ ذاتَ يومٍ فقالَ لهُم: من ذَا الَّذي يَبني عَلى موجِ البحرِ دَاراً؟.. فاعْبرُوها ولا تُعمِّروُها!

ودخلَ رجلٌ عَلى أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنهُ ،

فجعلَ يقلِّبُ بصرَهُ في بيتهِ ، ثُمَّ قالَ:

يا أَبَا ذرٍّ: أينَ متَاعُكم؟

فقالَ: إنَّ لَنا بَيتاً نتوجَّهُ إليهِ.

فقالَ: إنَّه لا بُدَّ لكَ من متاعٍ ما دُمتَ هَاهُنا.

فقالَ: إنَّ صاحبَ المنزلِ لا يدَعُنا هَاهُنا!!

وأوْصَى عليُّ بنُ أبي طَالبٍ ذاتَ يومٍ فقالَ:

أَيُّها النَّاسُ! إنَّ الدُّنيا قدْ ارْتَحلَتْ مُدبِرةً ، وإنَّ الآخرةَ قدْ ارْتحلتْ مُقبِلةً ، ولكلٍّ مِنهما بَنُونٌ ، فَكُونُوا منْ أبناءِ الآخرةِ ، ولا تكونُوا مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حِسابٌ ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ!

ورُويَ: أنَّ رجُلاً دخلَ عَلى أحدِ الصَّالِحينَ ، فقلَّبَ بصرَهُ في بَيتهِ.

ثمَّ قالَ: إنِّي أرَى بيتَك بَيتَ رجلٍ مُرتَحلٍ.

فقالَ: لا أرْتحِل ولكنْ أُطرَدُ طَرْداً!! إنَّما هي أيَّامٌ!!

واعتَدلتِ الخالةُ (صفية) في جلسَتِها، لِتقولَ: لِذلكَ فَعلى كُلِّ مُؤمنٍ أنْ يَعدَّ نفْسَهُ في الدُّنيا مُسافراً غَيرَ مُقيمٍ أبداً، لِذلكَ فعليهِ أنْ يُحصِّلَ الزَّادَ للسَّفرِ، وعليهِ أنْ لا يُكثرَ منْ متاعِ الدُّنيا الفَانيةِ، كَما جاءَ في وَصايَا الحَسنِ البَصرِيِّ رَحمهُ اللهُ تَعالى:

يا بنَ آدمَ! إنَّما أنتَ أيامٌ مَجموعةٌ، كُلَّما مَضَى يومٌ مَضَى بعضُكَ.

يا بنَ آدمَ!

إنَّمـا أنـتَ بيـنَ رَاحلتيـنِ -مَطيَّتَيـنِ- يُوضعانِكَ، يُوضعكَ اللَّيلُ إلى النَّهارِ، والنَّهارُ إلى اللَّيلِ، حتَّى يُسْلِمانِكَ إلى الآخِرة، فمنْ

أعظمُ منكَ يا بنَ آدمَ خَطَراً؟!

وقالَ دَاودُ الطَّائيُّ رحِمهُ اللهُ تَعالى: إنَّما الليلُ والنَّهارُ مراحلُ يَنزِلُها النَّاسُ مَرحلةً مَرحلةً ، حتَّى ينتَهيَ ذلكَ بهِم إلى آخرِ سفرِهِم ، فإنِ استطعتَ أنْ تُقدِّمَ في كُلِّ مرحلةٍ زاداً لما بينَ يدَيْها فافْعلْ ، فإنَّ انقطاعَ السَّفرِ عن قريبٍ هو ، والأمرُ أعجلُ منْ ذلكَ ، فتزوَّدْ لسفرِكَ ، واقضِ ما أنْتَ قاضٍ مِنْ أمرِكَ ، فكأنَّكَ بالأمرِ قدْ بغَتَكَ.

وقالَ أحدُ العارِفينَ باللهِ:

سَبيلُكَ في الدُّنيا سبيلُ مسافرٍ
ولا بُدَّ منْ زادٍ لكُلِّ مسافرِ
ولا بُدَّ للإنسانِ من حَملِ عُدَّةٍ
ولا سِيَّما إنْ خافَ صوْلَةَ قَاهِرِ

ورُويَ عن الفُضيل بْنِ عِيَاض رَحمهُ اللهُ

تَعالى أنَّه قالَ لرجلٍ: كمْ أَتَىٰ عليكَ؟

قالَ: ستُّونَ سَنة!

قالَ: فأنتَ من ستِّينَ سنةٍ تَسيرُ إلى ربِّكَ ، يُوشِكُ أن تَبلُغَ!

فقالَ الرَّجلُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ رَاجعُونَ.

قالَ الفُضيلُ: أتعرفُ تفسيرَ هذِه الجُملةِ؟

قالَ: لاَ.

قالَ: أنا للهِ عبدٌ وإليهِ راجعٌ ، فمنْ عَرفَ أنَّهُ للهِ عبدٌ ، وأنَّهُ إليهِ راجعٌ ، فَليعلمَ أنَّه مَوقُوفٌ.

ومَنْ عَلمَ أنَّه مَوقُوفٌ فليعلمَ أنَّهُ مَسؤولٌ.

ومنْ عَلمَ أنَّه مَسؤولٌ فليُعِدَّ للسُّؤالِ جَواباً.

فقالَ الرَّجُلُ: فَما الحِيلَةُ؟

قالَ: يَسيرةٌ.

قال: مَا هِي؟

قالَ: تُحسِنُ فيما بَقِيَ ، يُغفَرُ لكَ مَا مَضَى ، فإنَّكَ إنْ أسأتَ فيما بَقِيَ ، أُخِذْتَ فيما مَضَى ، ومَا بَقِيَ.

لكنْ هلْ معْنَى ذَلكَ أنْ نَترُكَ السَّعيَ عَلى الأرزَاقِ؟

قالَ الوالدُ (أبو الخير):

ولِكي لا يُظَنَّ مِن هَذا الكَلامِ أنَّه تَعالَى أمَرَنَا أنْ نَنْقطِعَ لعبادَتِه دُونَ سعْيٍ على الأرزاقِ!!

لا بُدَّ أنْ نُميِّزَ بينَ التَّوكُّلِ عَلى اللهِ مَعَ العَملِ ، وبينَ التَّواكُلِ الذي يَعنِي تركَ العملِ.

فاللهُ سُبحانَهُ وتَعالى ، ومِنْ ثمَّ رسولُه صَلواتُ اللهِ عَليهِ ، بيَّنَا في ذلكَ منهَجاً مُعتدِلاً:

فليستِ الزَّهادةُ في الدُّنيَا بتحريمِ الحَلالِ ، ولا إضاعةِ المالِ ، وإنَّما هِي أنْ لا تكونَ بما في يَديكَ أوثقَ مما في يَدِ اللهِ.

ويكونُ ذلكَ عن طريقِ أنْ ينظرَ الإنسانُ إلى الدُّنيا عَلى أنَّها زائلةٌ لا مَحالةَ ، وعِندئذٍ تَصْغُرُ في عَينِه ، فيسهلُ عليهِ الإعراضُ عَنها.

وصدقَ القائلُ: ليسَ الزَّاهدُ منْ لا مالَ عندَهُ ، وإنَّما الزَّاهدُ من لمْ يَشغلِ المالُ قلبَهُ وإنْ أُوتيَ مثلَ ما أُوتيَ قَارونُ.

القولُ الفيصلُ في ذَلك!!

وقالَ الشَّابُّ (صهيب):

ولكنَّ القولَ الواضحَ الفَيصلَ في ذلكَ: أنَّ عَلى الإنسانِ أن يعملَ في الدُّنيا.. ويبتغيَ بذلكَ

وجهَ اللهِ تعالَى، وينويَ من عَملهِ أن يَكفيَ نَفسَهُ وعِيالَهُ ويقدِّمَ الخَيرَ للنَّاسِ.

وعندئذٍ يكسبُ خيرَيّ الدُّنيا والآخِرةِ، مِصداقُ ذلكَ قولُه تَعالى:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

[القصص: ٧٧].

وقد وَرَدَ في الأثرِ أنَّ أنبياءَ اللهِ جَميعاً عمِلُوا في أعمالٍ دُنيويةٍ:

فآدمُ عليهِ السَّلامُ كانَ زَارِعاً، ونوحٌ عليهِ السَّلامُ كانَ تَاجراً، وإدريسُ عليهِ السَّلامُ كَانَ خيَّاطَاً، ورَسولُنا مُحمدٌ ﷺ رَعى الغَنمَ وعَملَ في التِّجارةِ..

وطَالما سخَّرَ اللهُ للبشَرِ كُلَّ ما فِي الكونِ، معنَى ذلكَ أنَّ عَليهم أنْ يَعملُوا في سُبلِ الحَلالِ.. وهُم ينظرونَ إلى الآخرةِ، مِصداقُ ذلكَ قولُه تَعالى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الجاثية: ١٢ ـ ١٣].

ألاَّ تَخافُوا.. ولا تحزَنُوا

وختمتْ (أم الخير) الجلسةَ قائلةً:

فالمؤمنُ العاقلُ هُو الذي لا يَغْترُّ بِما في الدُّنيا، إنَّما يُسخِّرُ ذلكَ لنيلِ الآخرةِ.. والشَّقِيُّ

هو الَّذي يَستغرقُ في الدُّنيا إلى حدِّ العِبادةِ، وينسَى الآخرةَ.

لذلكَ إذا حَضرتِ الوفاةُ المؤمنَ.. فإنَّهُ يفرحُ ويستبشرُ، ذلكَ لأنَّهُ اقتربَ من لقاءِ ربِّهِ سبحانَه وتَعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والمؤمنُ يعيشُ في هذِه الدُّنيا غَريباً مُسافِراً أو عابرَ سبيلٍ، ويَستخدِمُها لِيستفيدَ مِنها ويتزوَّدَ للآخرةِ، ورَضيَ اللهُ عَنِ الحَسنِ البَصريِّ عِندَما قالَ:

يا بنَ آدمَ!

بِعْ دُنياكَ بآخرتِكَ تربَحهُما جَميعاً،

ولا تَبِعْ آخرتَكَ بِدُنياكَ فتخسَرهُما جَميعاً.

يا بنَ آدمَ!

طَأ الأرضَ بِقدمِكَ ، فإنَّها عنْ قليلٍ قَبرُكَ.

واعلَمْ أنَّكَ لمْ تزلْ تَهْدِمُ عُمرَكَ منذُ سقطْتَ من بطنِ أُمِّكَ..

والحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ